الحس المأسوي في الشعر الأندلسي

أ.د عبد القادر هني
قسم اللغة العربية و آدابها
جامعة الجزائر 2

كلّ من يقرأ الشعر الأندلسي و يصغى إليه بأذن مرهفة و يستقبل خوالج شعرائه بنفس حساسة بالجمال متجاوبة مع ما كانت تطفح به نفوسهم من مشاعر و أحاسيس يدرك أن مصدر هذا الشعر لم يكن دائما تلك النفوس المتوثبة التي تجاوبت بعمق و بعشق شديد مع ما عرفه هذا الصقع في فترات مختلفة من تاريخه قبل منصرم القرن الرابع الهجري من مباهج و أفراح كان مسرحها مجالس الأمراء و الملوك و ما كانت تعج به الأندلس من نوادٍ و جنان، بل كانت هناك أيضا عوامل مثلت في هذه الفترات نفسها مصدراً لجراحات و مواجع اكتوت النفوس بضرامها و ألهبها شواظ نيرانها. فإذا أنعمنا النظر في الظروف الحافة بالشاعر الأندلسي يومئذ بحثا عن أسباب هذه المواجع و بواعثها رأيناها متصلة في الأعم الأغلب بالعامل السياسي سواء حين تعلق الأمر بشخصيات تعاطت الشعر و خاضت بعض الخوض في الحياة السياسية فاصطلت بلهبها المحرق أم حين تعلق بشخصيات أخرى بينها و بين الشعر نسب و علقة أمكناها من المشاركة في الحياة الأدبية بما كانت تفيض به قرائحها من درر

لكنها لم تكن بمنجاة من تبعات وضع سياسي مربك فكانت من ضحاياه و إن لم تشارك فيه و لا أبدت لأيّ من المتنازعين في حلبته ميلاً أو هوى و لا تعاطفت معه تعاطفا سياسياً.

إن الواقع السياسي الذي سيسم شعر طائفة من الشعراء بالطابع المأسوي الذي سنحاول إبرازه في هذه السطور هو إفرازمن إفرازات سياسية الحكم المستنصر الذي تولّى أمر الأندلس بعد أن قضى أبوه الناصر الذي شهد المؤرخون أنه جعل من أندلس أواخر القرن الثالث الهجري أندلساً جديدة و هيّأها لحمل مشعل الحضارة بما وفره لها من أمن و استقرار نتيجة حزمه في تسيير شؤون الدولة السياسية و المالية.[1] فالناصر و إن كان في سياسته قد غلّب العنصر الأجنبي على العنصر العربي، لاسترابته بالقبائل العربية فعمل على سحق عصبيتها بهذا التغليب و بالإقصاء والإبعاد، لكن هؤلاء الأجانب من صقالبة و غيرهم كانوا آلات طيعة في يده يرجعون إليه في كل صغيرة و كبيرة، و لم يسمح لهم حزمه إن يبرزوا نفوذهم. ولما تولّى الحكم المستنصر الذي لم تكن له قوة شخصية والده و لا حزمه و قبضته على زمام الأمور، واصل في تقديم الأجانب و الصقالبة منهم خاصة، لذلك و من اللحظة الأولى من جلوسه على أريكة العرش في منتصف القرن الرابع الهجري (350هـ) نجد أنفسنا أمام مشهد يوحي لنا بما سيكون للصقالبة من خطر في فترة حكمه، قال المقري عن أول جلوس الحكم على العرش: « و أول ما أخذ البيعة على صقالبة قصره والفتيان المعروفين بالخلفاء الأكابر كجعفر صاحب الخيل و الطراز و غيره من عظمائهم و تكفّلوا بأخذها على من وراءهم و تحت أيديهم من طبقتهم و غيرهم».[2]

إن كلام المقّري يعطينا فكرة عمّا منحته سياسة الحكم للصقالبة من نفوذ، فهم أول من أخذ بيعتهم وكلفهم نيابة عنه بأخذها على غيرهم. إنه لتحول خطير في السياسة سيزيد من خطورته انصراف الحكم أكثر من أيٍّ ممن تقدموه إلى الاهتمام بالحياة العلمية و الثقافية عامة[3] ، التي ستدفع بها سياسة الحكم إلى درجة لم تبلغها من قبل. وزاد من خطورتهم عددهم الذي تزايد تزايداً ملحوظا، فقد ذكر ابن عذاري أن القصر وحده اشتمل على ما يزيد عن ألفٍ من الخصيان و أن الجيش تكوّن برمته تقريباً من الصقالبة و أصبحت قيادته بين أيدي اثنين من كبارهم هما فائق وجؤذر الحكمي[4].

إن السياسة التي انتهجها الحكم ستؤدي إلى ظهور شخصيات سيكون لها دور خطير في أحداث الفترة التالية، قال الفتح بن خاقان يتحدث عن جعفر المصحفي: « و استوزره المستنصر، و عنه كان يسمع و به يبصر، فأدرك بذلك ما أدرك، و نصب لأمانيه الحبائل و الشرك و اقتنى و ادخر و أزرى بمن سواه و سخر»[5].

إن أمثال جعفر المصحفي و صقالبة القصر، أتاحت لهم سياسة الحكم توسيع نفوذهم و تعزيز مراكزهم، و هو أمر سيخلق بينهم صراعاً عنيفا في فترة تالية، فعند وفاة الحكم المستنصر(366هـ) كان نفوذ الصقالبة قد بلغ أوجه و سلطة المصحفي اتسعت و استحكمت، و ذاعت شهرة شخصية أخرى هي المنصور بن أبي عامر الذي قال عنه لسان الدين بن الخطيب «... كان – أي المنصور- آية من آيات الله فطرة دهاء و مكر و سياسة»[6]. وساعد على احتدام الصراع بين هذه الشخصيات التي لم يكن لطموحها في الاستحواذ على السلطة حدود أن خليفة الحكم كان

ابنه هشام المؤيد الذي لم يكن يومئذٍ قد بلغ سن الاحتلام. لذلك كان من الطبيعي أن يَسهل – على من ستكون له الغلبة- تحييده و الحجر عليه و تسيير شؤون الدولة باسمه بعد أن يكون قد أجهز على منافسيه مستعينا ببعضهم على بعض، إلى أن خلا له الجو فجمع مقاليد الأمور بين يديه، قال ابن الخطيب يتحدث عن الطريق الذي سلكته إحدى هذه الشخصيات المتصارعة- وهي المنصور بن أبي عامر- للتخلص من منافسيها و الاستحواذ بالسلطة «... عدا (يعني المنصور) بالمصاحفة على الصقالبة حتى قتلهم، ثم بغالب على المصاحفة حتى قتلهم ثم عدا بجعفر بن الأندلسي على غالب حتى استراح منه، ثم عدا بنفسه على جعفر حتى أهلكه ثم انفرد بنفسه ينادي صروف الدهر هل من مبارز؟ فلما لم يجده حمل الدهر على حكمه ، فانقاد له و ساعده، و استقام له أمره منفردًا بسابقة لا يشاركه فيها غيره».[7] أو حسب عبارة المقري « تجرد (أي المنصور) ، لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه، فمال عليهم، و حطّهم عن مراتبهم و قتل بعضًا ببعض، كل ذلك عن أمرِ هشام و خطّه و توقيعه، حتى استأصلهم و فرق جموعهم، و أول ما بدأ بالصقالبة الخصيان الخدام بالقصر ، فحمل الحاجب المصحبي على نكبتهم، فنكبهم و أخرجهم من القصر، و كانوا ثمانمائة أو يزيدون، ثم أصهر إلى غالب مولى الحكم، و بالغ في خدمته و التنصح له، و استعان به على المصحفي فنكبه و محا أثره من الدولة ، ثم استعان بجعفر بن علي بن حمدون صاحب المسيلة و قائد الشيعة ممدوح ابن هانئ بالفائية المشهورة و غيرها، و هو النازع إلى الحكم أول الدولة بمن كان معه من زناتة و البربر، ثم قتل جعفرًا بممالاة ابن عبد الودود و ابن جهور و ابن ذي النون و أمثالهم من أولياء الدولة من العرب و غيرهم»[8].

هكذا نكّل المنصور بمنافسيه شرّ تنكيل و بطش بهم بطشا شديدًا وسامهم خسفا و سقاهم كأس الذل صرفا. و قد كان من بين هذه الشخصيات التي ذلت بعد عزَّ و لحقها بعد اليسر عسرٌ شعراء، فراحوا يبكون في غنائية شجية ماضيهم الدابر و صوروا كبوة الدهر بهم تصويرًا يعكس ثقل المأساة التي ألمت على نفوسهم فتضوّروا ألما من واقعهم في السجون التي أضحت لهم سكنًا، بعد القصور المنيفة التي تفننوا في زخرفتها وتأثيتها في عهد العزّ و الرخاء عندما ابتسمت لهم الحياة بملء فيها، فتراكمت الأحزان في أحنائهم فأرسلوها أنينا شجيا و حسرات موجعة وتأوهات تنفطر لها الأكباد في شعر غلبت عليه عاطفة قاتمة تعبر عن كآبة هذه النفوس المنكوبة. على أنه لا بد أن نسجل بأن هذا اللون من الشعر في الأندلس لم يظهر لأول مرة في ظل عنف السياسة التي انتهجها المنصور بن أبي عامر، إنما عرفه الأدب الأندلسي قبل عهد العامريين بمدة، فالتنافس المحتدم بين بعض الشخصيات المقربة من السلطان لاعتلاء المناصب الرفيعة، جعل طائفة منها تذهب ضحية الدسائس و المؤامرات التي يخلقها الصراع على المنصب. كما أن بعض الشخصيات السياسية الكبيرة كثيرًا ما كانت تنتهي مصائرها إلى حيث لم يكن في حسابها ، بسبب تقلب الأوضاع و اضطراب حبال الأهواء من حال إلى حال [9] ، مثلما حدث لهاشم بن عبد العزيز الذي كان تقلد الوزارة و الحجابة في عهد الأمير محمد (ت 273 ه) فألقى ظله على كل سلطة، غير سلطة الأمير، ثم تقلب به الحال في عهد الأمير المنذر بن محمد (ت 275ه) لِما عُرف به من تيه وصلف و شره في العهد السابق [10]، فأدخل السجن و صُفّد بالحديد و ضرب وهدمت داره فتألم لنكبته تألما شديدا ، فكتب شعرا أرسل به إلى جاريته «عاج» يصور لها فيه محنته و مأساته في سجنه، قال[11]:

وإني عداني أن أزورك مطبقٌ وبابٌ منيعٌ بالحديد مُضبَّبٌ
فإن تعجبي يا «عاج» مما أصابني ففي ريب هذا الدهر ما يتعجبُ
وفي النفس أشياء أبيتُ بغمّها كأني على جمر الغضى أتقلب
تركت رشاد الأمر إذ كنت قادرًا عليه فلاقيت الذي كنت أرهب
وكم قائل قال:أنج ويحك سالمًا ففي الأرض عنهم مستراد ومذهب
فقلت له : إن الفرار مذلةٌ ونفسي على الأسواء أحلى وأطيب
سأرضى بحكم الله فيما ينوبني وما من قضاء الله للمرء مهرب
فمن يك مسرورًا بحالي فإنّه سينهل في كأسي وشيكا ويشربُ

إن ما يهمنا في هذا المقام ليس التأريخ لهذا اللون من الشعر، إنما يهمنا أن نتبيّن بعض سماته و خصائصه. و لعل أول ما يلفت النظر فيه اتجاه الشعراء إلى تصوير نكباتهم بإيقاع شجيّ و نغم وئيد يظهر لك الشاعر في مظهر الضعيف المغلوب على أمره الذي يستحق العطف و الرثاء لحاله، فلا تحس و أنت تقرأ هذا الشعر بشيء من الاعتداد بالنفس و الزهو والفخر بإباء الضيم و الذل إلاّ في حالات نادرة جدا حين ييأس الشاعر من الانطلاق، فجعفر المصحفي الذي كان في عهد عزّه لا يخرج إلاّ في موكب كثيف حتى ليعز على المرء الوصول إليه ، لكثرة من يحف به من خدم و حشم، نسمعه و قد نكبه المنصور بن أبي عامر فتكورت شمسه كما قال الفتح بن خاقان، يستعطف ناكبه استعطاف العبد الذليل بصوت شجي غير معهود لديه في شعر المرحلة الزاهية من حياته الذي كان حافلا « بالرؤى الحالمة و الأطياف العذبة، تعكس ما لاقاه الشاعر في حياته من نجاح و توفيق، و ماحالفه من سعدٍ و يُمن رفعاه إلى مصاف فحول الشعراء و كبار الوزراء»[12].

قال المصحفي[13]:

عفا الله عنك ألا رحمةً تجود بعفوك أن أُبعدَا
لئن جلَّ ذنبٌ ولم اعتمده فأنت أجلُّ وأعلى يدا
ألم تر عبدا عدا طوره ومولى عفا ورشيدا هدى
و مُفسد أمرٍ تلافيته فعاد فأصلح ما أفسدا
أقلني أقالك من لم يزل يقيك ويصرف عنك الردى

إن هذه الأبيات تظهر المصحفي ضعيفا ذليلاً يستحق العطف والشفقة و تكشف عن مأساته و عمق أثر النكبة في نفسه من خلال موسيقاها الشجعية التي غلبت عليها غنائية شفافة. و لا ريب فقد كان المصحفي أشد الناس خورًا عندما سجن[14]. و لعل مرجع إحساسه بعمق مأساته كما يتجلى من الأبيات، المفارقة الشديدة بين إشراقة أمسه الدابر و ظلام حاضره القائم التي صورها الفتح بن خاقان تصويرًا دراميا[15]. وكلام الفتح يوقفنا على عنف نكبة الشاعر و مأساته المروعة، و هو ما جعل صورته في شعره الذي قاله مستعطفًا المنصور أشجى و أرق من هديل الحمام، فها هو، في مقطوعة أخرى، يستعطف ابن أبي عامر استعطاف العاجز المغلوب على أمره ويرجوه أن يشفق عليه ويرحم فيه ضعفه وشيخوخته، قال[16]:

هبني أسأت فأين العفو والكرم إذ قادني نحوك الإذعان والندم
يا خير من مُدت الأيدي إليه أما ترثي لشيخ رماه عندك القدم
بالغت في السخط فاصفح صفح مقتدرٍ إن الملوك إذا ما استرحموا رحموا

إذا كانت هذه الظاهرة أوضح في شعر المصحفي منها عند غيره، للمفارقة الشديدة بين ما كان فيه من نعماء و عيش رغد و جاه كبير،

وبين ما انتهى إليه في مطبقه من فاقة وعوز وضعف بلغ مداه حتى لكأنه لم يغن بالأمس، فإن ما قاله المنكوبون الآخرون في سجونهم لم يعر من مثل هذا الإحساس المأساوي الذي لمسناه عند المصحفي يظهر ذلك من العاطفة الغالبة على أشعارهم والتي تعكس ما كانت تمور به نفوسهم من إحساس عميق بمآسيهم ولّده السجن في تلك النفوس المجروحة فراحت تسكب دواخلها في نغم رقيق يطبعه الأنين والشكوى، فلنصغ إلى محمد بن مسعود الغساني البجاني كيف يخاطب المنصور بصوت رقيق يُعبّر فيه عن معاناته في محبسه، ويسأله أن يرفع عنه القيد وأن يترك أمره للقدير الرحيم، إن كان ما رّمي به من رهق في دينه صحيحا، قال[17]:

دعوتُ لَمًّا عيل صبري فهل يسمع دعوايَ المليك العليم
مولاي، مولاي ألا عطفة تذهب عني بالعذاب الأليم
إن كنتُ أضمرتُ الذي زخرفوا عني فدعني للقدير الرحيم
فعنده نزّاعة للشوى وعنده الفردوس ذات النعيم

أما أبو الأصبغ عيسى بن الحسن ، فإن إحساسه بمأساته قد بلغ مبلغه من نفسه في سجنه فالتفت إلى ما حوله من عناصر الطبيعة فأسقط عليها مشاعره وأحاسيسه ، متوهما أنّ الحمام يقاسمه حزنه وأساه، فخاطب المنصور يستثير في نفسه مشاعر العطف والرحمة ليفك عنه قيده فقال[18]:

وإن سمعت أذناك للوُرق رنةً فحزني يبكيها وفرطُ تفجُّعي
وإن هطلت يومًا على الأرض مُزنة فلي سَمحت بالدمع مع كل مربع

إن ابن بسام لم يرضه تصوير الشاعر مأساته على هذا النحو، فرأى في البيتين تكلفا. ويبدو أن صاحب الذخيرة لم يضع في حسابه أن استبداد

الأسى بنفس الشاعر و فرط شوقه إلى الانطلاق من محبسه هو ما حدا به لأن يشرك الطبيعة في الإحساس بمأساته و بنكبته. فإذا كان الأناسي لم يحركهم شجوه و أنينه فيرفعوا عنه القيد و يردوا إليه حريته، فإنه وجد في الطبيعة متنفسا، فأرهف سمعه إليها، فوجدها أكثر رحمة من أولئك الذين ضيقوا عليه و سلبوه حقه في الحياة الحرة، فالحمام الأعجم كما تصور الشاعر تجاوز ذاته فاندمج معه في وحدة شعورية فأحس بمأساته و بكى متجاوباً معه و مشاركا له في محنته.

مسألة أخرى نتبينها في هذا اللون من الشعر هي استيقاظ حب الحياة في نفوس الشعراء[19] ، يتبين ذلك من الشواهد المتقدمة نفسها، فهؤلاء المنكوبون، إذ يستعطفون ناكبيهم، فإنهم يعبرون في حقيقة الأمر عن شوقهم إلى الانطلاق و الخروج إلى الحياة التي حيل بينهم و بينها. و لعل الأبيات التالية لأبي الأصبغ عيسى بن الحسن توضح هذه المسألة و تزيدها بيانا، قال[20]:

ليت شعري كيف البلاد و كيف الـ إنس و الوحش و السماء و الماءُ
طال عهدي عن كل ذلك، و ليلي و نهاري في مقلتي سواءُ
ليس حظي من البسيطة إلاّ قدرُ قبر صبيحة أو مساءُ
و إذا ما جنحتُ فيه لأنس أوحشتني بأنسها الأغبياءُ

إن الشاعر إذ يتساءل عن الحياة خارج محبسه، فإنه يعبر عن شوقه إلى الانطلاق و الخروج إلى فضائها الفسيح، فقد بَعُدَ العهد بينه و بينها، فانقطعت بينهما الأسباب ، فغدا كلّ شيء مظلما في نفسه كأنه الليل البهيم، و زاد من تكثيف همومه و شعوره بعنف قيده أنه لم يجد بين المسجونين معه من يخفف عنه ثقل مأساته أو يجعل حياته في محبسه

قريبة من تلك التي يتطلع إليها خارج المطبق ، لذلك أضحى و كأنه يعيش الموت في الحياة.

و نلقى مثل هذا الشوق إلى بهجة الحياة خارج السجن عند عبد العزيز بن الخطيب الذي صادفه يوم مهرجان في المحبس فقال:[21]

رويدك أيها الشوق المذكيُّ لنار صبابتي بالمهرجانِ
لقد أذكرتَ مني غير ناسٍ وهجت لي الصبابة غيروانِ
أيوم المهرجان أعذر فحالي تراها في البلاد كما ترانِ
و لو لم يثنني طبقٌ وقيدُ لرحت وقُيدَ لي قصبُ الرهان

على هذا النحو نتبين كيف أن شدة إحساس الشعراء بمآسيهم في سجونهم أيقظت في نفوسهم قيمة الحياة التي حُرِموا منها و جمالها فعبروا عن تعلقهم بها، فعبد العزيز بن الخطيب في أبياته يتوق إلى المشاركة في مباهج الحياة في مثل هذا اليوم الذي تمثل له شخصا يعي و يسمع فراح يخاطبه مثلما يخاطب الأحياء، لكن مطبقه حال بينه و بين الانطلاق إلى فضائها الفسيح ليعبَّ من مباهجها.

و قد حركت هذه المآسي التي كانت تملأ أحناء مثل هؤلاء الشعراء في سجونهم عاطفة إنسانية سامية هي عاطفة الأبوة، مثلما هي الحال عند أبي مروان الجزيري الذي غمر نفسه شوق جارف إلى ابنه الصغير حين تذكر، و هو يتجرع مأساته في محبسه بقلعة طرطوسة[22] ، لحظة وداعه الأهل و هو يقتاد إلى هذا المعتقل، فقال[23]:

و إذا الفتى فقد الشباب سما له حب البنين و لا كحب الأصغر
عجبًا لقلبي يوم راعتنا النّوى و دنا وداعك كيف لم يتفطر
ما خِلتُني أبقى خِلافك سَاعَةَ لولا السكونُ إلى أخيك الأكبر

و كان من الطبيعي و قد اشتد الشعور بالمأساة لدى هؤلاء الشعراء حين بولغ في التضييق عليهم و في إذلالهم أن يلتفتوا إلى أيام العزّ، يوم كانت الحياة مقبلة عليهم ، فقد وقفوا عليها وقوفهم على طلل يرثونه بعد أن سلبه كرُّ الدهور نضارته فأبلاه. فمحمد بن إسماعيل كاتب المنصور بن أبي عامر يُروى أنه في إحدى الغزوات التي كان المنصور ينقل المصحفي المنكوب معه إليها. رأى ابنه عثمان « يَسِفُّ دقيقا قد خلطه بماء و يقيم به أوده، و يمسك بسببه رَمقهُ ، بضعفِ حالٍ و عدم زاد، فانطلق المصحفي، يقول[24] :

تأملتُ صَرفَ الحادثات فلم أزل أراها توفي عند موعدها الحُرّا
فللّه أيام مضت بسبيلها فإني لا أنسى لها أبدًا ذكرا
تجافت بها عنا الحوادث بُرهة و أبدت لنا منها الطلاقة و البشرا
ليالي لم يَدر الزمانُ مكانها ولا نظرت منها حوادثه شزرا
وما هذه الأيام إلاّ سحائبُ على كلّ أرضٍ تُمطر الخير و الشرا

إن إحساس المصحفي العميق بمأساته دفعه إلى أن يرثي ماضيه الجميل و سعادته الآفلة بعد أن أدركها البلى و أذبلت الحوادث زهرتها، ونحس لديه حنينا قويا إلى تلك الأيام التي وَلَّت إلى غير رجعة، و يدعوه ذلك إلى تأمل تقلب الأيام و تحوّل حياته بين الماضي و الحاضر، فيخرج بحكمه وجد فيها شيئا من العزاء مما تطفح به النفس من آلام و أحزان، و مؤدى هذه الحكمة أن الخير و الشر في الدنيا مقترنان، مُشبها الأيام بما تحمله للإنسان في أثنائها بسحابة تمطر الأرض خيرًا و شرًا ، فالمطر قد يكون نافعا فيبعث الحياة في الأرض بعد قحطٍ و جفافٍ، و قد يكون وبالاً على ما انبتته من كل زوج بهيج فيجرفه فتضحى الأرض على إثره خراباً

يباباً، كالخراب الذي أحدثه السيل الذي وصفه امرؤ القيس في ملعقته الخالدة.

على هذا النحو الذي صوره المصحفي في بيته الأخير ، نرى هؤلاء الشعراء الذين عاشوا أمدًا يتقلبون في نِعم الحياة و رخائها، حين أدبرت الحياة عنهم و قلبت لهم ظهر المجن، فذاقوا مرارة البؤس، يتعمقون نفوسهم و يتأملون ما كانوا فيه و ما أصبحوا عليه فيستخرجون مواعظ وحكما، فهذا المصحفي نفسه يدعو الإنسان – في أبيات أخرى- إلى ترقب الزمن المتقلب بأهله مفيدًا من تجربته هو، فيقول[25]:

لا تأمننّ من الزمان تقلّباَ إن الزمان بأهله يتقلب
ولقد أراني و الليوث تهابني وأخافني من بعد ذلك الثعلب
حَسبُ الكريم مهانة ومذلةً ألاّ يزال إلى لئيم يَطلبُ

و قد رأينا في الأبيات التي أوردناها لهاشم بن عبد العزيز الذي تقلب عليه الزمن مثلما تقلب بالمصحفي شيئا من هذه الحكمة التي أفرزها عمق إحساسه بمأساته ختم بها أبياته حين خاطب الشامتين به مذكرا أياهم أن نهاياتهم لن تكون خيرًا من نهايته إذ قال:

فمن يك مسرورًا بحالي فإنه سينهل في كأسي وشيكًا ويشرب

و مثلما انتهى المصحفي بعد ما ولدته لديه مأساته من شكوى و أنين إلى الحكمة ، نرى أبا مروان الجزيري الذي كانت الحياة قد أقبلت عليه حينا من الدهر، إذ كان في عداد كتاب الديوان في دولة المنصور، بعد أن زلت به القدم وغيّب في السجن بطرطوشة، يتعمق نفسه ويقلب الطرف في تجربته الحياتية فيستخلص حكمة تعليمية ويوجهها إلى بنيه في عصر مملوء بالدسائس فيقول:[26]

و اخزن لسانك و احترس من نطقه و احذر بوادر غيّه ثم احذر
و اصفح عن العوراء إن قيلت وعُد بالحلم منك على السفيه المعور
وكل السيّئ إلى إساءته ولا تتعقت الباغي يبغي تنصر
و إذا سئلت فجد و إن قلَّ الجدا جُهدُ المقل إزاء جُهدِ المكثر

إن الجزيري بعد المأساة التي تعمقت نفسه على إثر نكبته و ابتلائه مرّ الحياة بعد حلولها استخلص هذه الحكمة التي أرادها مركبة نجاة لبنيه في زمن محفوف بالدسائس و المؤامرات ويسمه العنف الشديد الذي لا مكان فيه للرحمة و الشفقة.

و الظاهرة التي تلفت النظر في شعر ضحايا المؤمرات و الدسائس السياسية هؤلاء هي أنهم بعد أن يشتد عليهم الأحساس بمآسيهم يهرعون إلى الاستشفاع المتذلل طلبا للخلاص و العودة إلى رحاب الحياة و لمَا يعزُّ عليهم ذلك كثيرا ما يلوذون بالصبر، لكنه صبر الذليل الضعيف المستسلم لقدره. فالمصحفي بعد أن لم يجده أنينه و بكاؤه نراه يحض نفسه على الصبر و أن تموت كريمة عزيزة، سوى إن ذلك لم يحدث منه إلاَ بعد أن سقى نفسه مذلة الاستعطاف. وحتى في هذه الحالة التي يحثُ فيها نفسه على الصبر لا ينكر أنه ذلَ بعد عز و احتمل الضيم احتمال الضعيف العاجز ، فهو يقول[27]:

صبرت على الأيام لما تولت و ألزمت نفسي صبرها فاستمَرت
فوا عجبا للقلب كيف اعترافه وللنفس بعد العزّ كيف استذلت
و ما النفس إلا حيث يجعلها الفتى فإن طمعت تاقت و إلا تسلّت
وكانت على الأيام نفسي عزيزة فلما رأت صبري على الذل ذلّت
فقلت لها: يانفس موتي كريمة فقد كانت الدنيا لنا ثم تولّت

كأنّي بالمصحفي اعترته فترة صحو، بعد ما كان أغرق فيه نفسه من شكوى و أنين حين بلغت مأساته مداها، فحمل نفسه على أن تموت عزيزة كريمة. و نلاحظ في هذا الموقف- الذي هو أيضا من إفرازات يأس الخلاص من المأساة- ميل الشاعر إلى بعض معاني الزهد و الرياضة النفسية عند المتصوفة مثلما هو واضح في البيتين الأول و الثالث ، ففيهما يستلهم بيتين لامرأة مشرقية متصوّفة تدعى ريحانة و فيها تقول:

صبرتُ على اللذات حتى تولّت وألزمتُ نفسي صدها فاستمرتِ
و ما النفس إلاّ حيث يجعلها الفتى فإن أطيعت تاقت و إلاّ تسلّت

و تدفع قوة الإحساس بالمأساة المصحفى إلى الإيمان بالقضاء و القدر فيما حلّ به، لكن ذلك لم يكن إلاّ بعد أن سُدّت حياله سبل الانطلاق ، واستنفد دموعه التي سكبها ليحرك بها عاطفة الرحمة و الشفقة في نفس المنصور فيفك قيده و يطلق سراحه. قال المصحفى مستسلما لقدره:

لي مدّة لا بدّ أَبْلُغُها فإذا انقضت أيامها متُّ
لو قابلتني الأسد ضارية و الموت لم يدنُ لما خفت
فانظر إليَّ و كن على حذرٍ فبمثل حالك أمس قد كنت

إن هذا الاعتراف بالأجل و الاستسلام للقضاء إنما هو اعتراف العاجز الذي حاول فأخفق لا اعتراف المؤمن الحق بالقضاء و القدر الذي يفوّض أمره للّه و لا يتضرع لمخلوق أيا كان . إن مثل هذا الموقف من المصحفى يشِفُّ عن بلوغه درجة اليأس في الخلاص من المأساة التي استحوذت على كيانه كله حتى لم يبق له بصيص أمل في ما يمكن أن يخفف من شدة وطأتها عليه.

لعلّ من أهم القيم الأدبية و الفنية في شعر هؤلاء الشعراء الذين ذُلّوا بعد عزّ مَا تبع عمق إحساسهم بالمأساة من تأثير في صورهم و في طرائقهم الشعرية. فقد تقدمت الإشارة إلى أن شعر المصحفى قبل نكبته كان حافلا « بالرؤى الحالمة و الأطياف العذبة، تعكس ما لاقاه الشاعر في حياته من نجاح و توفيق و ما حالفه من سعدٍ و يُمنٍ رفعاه إلى مصاف فحول الشعراء و كبار الوزراء»[28] ، فإذا وازنَا هذه السمات التي ميّزت شعره قبل المأساة التي ألقت بظلالها عليه، بالنماذج التي عرضناها ظهر لنا الفرق واضحا، فصورة المصحفى في شعره الذي قاله مستعطفا هي صورة العبد الضعيف الذليل الذي لا حول له و لا طول، و نفسه تشف عن إحساس قاتم تطبعه غنائية شجية، و إيقاع شعره أضحى إيقاعاً ينمّ عما سكن النفس من حزن عميق، فقد غلبت على شعره بعد النغمة المرحة المترفة نغمة حزينة كلها شكوى و أنين، و ترك الصور الجميلة المشرقة التي كان ينقلها من حياته المترفة إلى صور قاتمة مصدرها نفس مكلومة غائرة الجرح. و لم يكن المصحفى مثلاً فرداً في هذا التحول الذي أحدثته مأساته في شعره، فالدكتور إحسان عباس يحدثنا عن التأثير الذي كان للسجن في طريقة يوسف بن هارون الرمادي الشعرية فيقول:» السجن كان من أقوى الدوافع التي كادت أن تحطم عليه طريقته الشعرية التي قامت على المجانة و اللهو في الموضوع و على الإغراق و الإحالة في تعقب الصور و المعاني، و انطلقت أشعاره في السجن من خلجات الحزن العميق و دوافعه، وردّه وضعه إلى شيء من التأمل في نفسه و في نهايته و ملأ أبياته بالبكاء حينا و بالتشوق إلى الانطلاق حينا آخر، و حلّت العاطفة الجياشة في شعره محلّ التصنيع الذهني» [29] .

على هذا النحو نرى كيف تغير الوتر الذي كان يوقع عليه هؤلاء الشعراء بتأثيرٍ من اشتداد مآسيهم في السجون التي أرهفت عواطفهم و كثفتها فانكفؤوا على نفوسهم يتأملونها و يستخرجون ما بأغوارها من إحساسات رقيقة يغلب عليها الحزن و الأسى, و طبيعي أن تنعكس في أشعار هؤلاء مآسيهم و معاناتهم في معتقلات عرفوا فيها أشد التضييق وأسوأ معاملة و أبعدوا فيها الإبعاد كله عن الحياة التي كانت مقبلة عليهم فعبُّوا من مباهجها و مسراتها ، كما يتجلى ذلك من وصف بعض هؤلاء الشعراء السجون التي زُجُّوا فيها، على نحو ما فعل أبو مروان الجزيري الذي وصف معتقله بقلعة طرطوشة وصفًا مستوفيا حتى قال صاحب الروض المعطار: إن وصف هذه القلعة « لم يستوفه بالصفة إلا عبد الملك بن إدريس الكاتب المعروف بالجزيري حين سجنه بها المنصور بن أبي عامر[30] « ، قال الجزيري في وصف محبسه[31]:

في رأس أجرد شاهق عالي الذرا ما بعده لمؤمل من مبصر
يهوى إليه كل أجرد ناعبٍ وتهبُّ فيه كل ريح صرصر
ويكاد من يرقى إليه مرة من دهره يشكو انقطاع الأبهر

فكما هو بيّن من هذا الوصف فإن معتقل عبد الملك الجزيري يقع في مكانٍ شاهق يكاد يعانق النجوم لفرط علوه، ولا أنيس فيه سوى الغربان، ولا يُسمع فيه صوت سوى هبوب الريح و صفيره ، ولوعورة مسالكه، فإن من يرقى إليه يحس تَقَصُّم حيازمه. فالشاعر إذا يقضي أوقاته بعيدا عن حياة الأحياء في هذا المكان المهجور الذي لا أنيس فيه سوى هذا الصنف المنفر من الطير، و لا جليس سوى ذكرياته التي يستعيدها من الماضي

البعيد. و إذا ما بدت لنا مبالغة في هذا الوصف ، فإنها مبالغة سائغة ، فهي تقرب إلينا ما يعتلج في نفسه من أسى و لوعة و ما يثقلها من هموم.

قد لا يخطئنا الصواب إن قلنا أن هذا الشعر الذي عبّر فيه الشعراء عن مآسيهم يُعد وثيقة فنية مهمة لعصر- أعني العهد العامري في الأندلس- قام على العنف و القوة و عدم التريث لمعرفة وجه الحق، و للتمييز بين المسيء حقا و بين من لفقت عليه التهمة تلفيقا. و كانت النتيجة أن ذهب بعض الأبرياء حتى ممن لم تكن لهم بالسياسة صلة ضحية العجلة وعدم التروي و التريث في إنزال العقاب، لذلك نرى بعض الشعراء يمزجون استعطافهم برجاء التثبت في ما رموا به من تُهم ، فقاسم بن محمد القرشي أودعه المنصور السجن، فجزع جزعاً شديداً فأرسل إليه بأبيات يستعطفه و يرجوه أن يتحقق من أمره و يحقن دمه، قال[33]:

يا من برحماه أستغيث و حق لي ... منه الغياث عُلاك استرعى دمي
لا أبتغي فيه سوى سنن الهدى ... عرضا و أقضية الكتاب المحكم
و تثبت المنصور مولانا و سيدنا المو ... فق في القضاء الملهم
ليموت أو يحيا بعدال قضائه ... فيرى اليقين عيان من لم يعلم
ناشدتك الله العظيم و حقه ... في عبدك المتوسل المحترم
بوسائل المدح المعاد نشيدها ... في كل مجمع موكب أو موسم
لا يستبح منه حمى أرعاكه ... يا من يرى في الله أحمى محتمى

إن مثل هذه الصرخة تكشف لنا أن بعض الذين أفرغوا مآسيهم في أشعارهم كانوا ضحايا دسائس هذا العهد العامري و سياسته التي طبعها العنف،فالشاعر إذ يرجو المنصور بن أبي عامر أن يحكم عليه بكتاب الله و يدعوه إلى التريث و التثبت قبل أن يصدر في حقه حكما، فإنه يزيح السُتُر

عن طبيعة سياسة العصر، فالمهم هو حماية السلطان و دفع كل ما قد يسيء إليه حتى على سبيل الظن ، من غيرٍ تروٍ في الحكم أحيانا ، و لو كان في ذلك بعض الضحايا الأبرياء الذين لم يخوضوا في السياسة و لم ينغمسوا في عبابها. وليس هذا الذي عبرعنه قاسم بن محمد سوى صدى لأحاسيس جماعة أخرى من الناس تحس هذا الإحساس نفسه و لكنها لا تملك أداة التعبيرعنه تعبيراً فنيا.

خلاصة القول، و مهما كان الأمرفإن هذا الشعرالذي عبّرفيه الشعراء المنكوبون عما ألمّ بهم من مآس يُعد صدى قويا لعصر طغى فيه التسلط و تضييق الخناق على كل من تشتبه فيهم المنافسة و إنزال أشد العقاب عليهم إن حقا أوظلما حماية لما كان بين أيدي ساسته من سلطان.

الهوامش:

1. راجع، أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح. د/ إحسان عباس، بيروت، دار صادر 1961، 1 /363، 366 ،379 . محمد عبد الله عنان، تاريخ العرب في إسبانيا، ط.1 ، مصر، مطبعة السعادة 1924، ص. 111 - 112 ، 133 - 134، و محمد عبد الله عنان، تراجم إسلامية شرقية و أندلسية ، ط2، مصر، دار المعارف ، 1947، ص.143 و 166، و عبد الحميد العبادي ، الصقالبة في أسبانيا، مدريد، المعهد المصري للدراسات الإسلامية، 1953، ص، 12 - 13.
2. المقري، نفح الطيب 1/ 386 – 387.
3. راجع. ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب، تح، عبد السلام محمد هارون، القاهرة 1962، ص، 100، و المقري، نفح الطيب 1/ 385 – 386.

4. راجع ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب، تح و مراجعة ، ج.س كولان و إ.ليفي بوفنسال ، ليدن 1951، 2/ 277.

5. الفتح بن محمد بن عبد الله بن خاقان، مطمح الأنفس و مسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تح، محمد علي شوابكة ، ط.1 ، بيروت، مؤسسة الرسالة 1983 ص 154.

6. لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تح. إ.ليفي بروفنسال، بيروت، 1956، 2/ 77.

7. لسان الدين بن الخطيب أعمال الأعلام، 2/ 77.

8. المقري، نفح الطيب 1/ 396 – 397.

9. إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي ،عصر سيادة قرطبة ط.5، بيروت، دار الثقافة 1978، ص 99 - 100 .

10.أبو بكر بن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، تح د/ عبد الله أنيس الطباع ، بيروت 1958،ص، 92.

11. ابن ألابار، الحلة السيراء ، تح د/ حسين مؤنس/ ط1، الشركة العربية للطباعة و النشر، 1963، 1/ 140 - 141.

12. المجلة العربية، العدد 67، السنة السابعة، حزيران 1983 ص 62.

13. المقري، نفح الطيب ،1/ 591، و ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب، 2/ 268.

14. راجع، ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب، 2/ 268.

15. راجع الفتح بن خاقان، مطمح الأنفس، ص 153 - 156

16. المقري، نفح الطيب، 3 /389.

17. المقري، نفح الطيب ،3/ 389.

18. ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح، د/ إحسان عباس، ط1، بيروت، دار الثقافة، 1965، ق:2 م:1 ص 377.

19. إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة ص 102-103.

20. ابن سعيد وآخرون ، المغرب في حلى المغرب، تح د/ شوقي ضيف / ط.3، دار المعارف بمصر، د.ب، 1 /212.

21. الحميدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، تح، محمد بن تاويت الطنجي، ط.1، القاهرة، مكتب نشر الثقافة الاسلامية 1952،ص,269.

22. طرطوشة بلد بشرق الأندلس، و هي على سفح جبل، راجع محمد بن عبد المنعم الحميري، كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تح د/ إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، 1975 ص، 391.

23. أبو منصور عبد الملك الثعالبي، يتيمة الدهر، القاهرة، مطبعة الصاوي 1934، 2/ 89.

24. الفتح بن خاقان، مطمح الأنفس، ص161.

25. ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب ، 2/ 272.

26. أبو منصور عبد الملك الثعالبي، يتيمة الدهر2 /89 - 90.

27. . الفتح بن خاقان، مطمح الأنفس ص 156 - 157.

28. ابن بسام، الذخيرة ، ق.4، م .1 ص 70، و المقري ، نفح الطيب 1/ 603.

29. المجلة العربية ع. 67 السنة السابعة ، حزيران 1983 ص. 62.

30. إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة ،ص 220.

31. محمد بن عبد المنعم الحميري، كتاب الروض المعطار، ص.391.

32. محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار، ص.391.

33. الحميدي، جذوة المقتبس، ص311.

طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
وحدة الرغاية - الجزائر-
2015
Achevé d'imprimer sur les presses
ENAG, Réghaïa
-Algérie-
Bp 75 Z.I. Réghaïa Tél: (023) 96 56 10 /11